أنتروبولوجيا اللغة

تأليف: جان بيار برونكار

ترجمة: أحمد الفوحي

يشكل هذا المقال الفصل الخامس من كتاب **نظريات اللغة: مدخل نقدي** لصاحبه جان بيار برونكار؛ وهو كتاب صدر في بروكسيل عن دار النشر Mardaga عام 1977، يتناول فيه صاحبه الدراسات التي جعلت اللغة والملكة اللغوية موضوعا لها وقد جعله أربعة أبواب : تناول في الباب الأول ما يتعلق بسيكولوجية اللغة، وجعل الباب الثاني الذي يمثل نصف الكتاب، خاصا باللسانيات البنيوية ومنها المقال المترجم، وأما الباب الثالث فخصه للحديث عن السيكولسانيين الذين استلهموا أعمال شومسكي وبياجي، ثم ختم الكتاب بباب رابع تناول فيه نظريات الخطاب انطلاقا من أعمال بنفنست وكوليولي.

وفي هذا المقال عرض لأهم إسهامات سابير في دراسة اللغة، وهي إسهامات أفادت من سيادة الأبحاث الأنتروبولوجية التي اهتمت بهنود أمريكا، عاداتهم ولغاتهم وثقافتهم . وكان لاهتماماته بربط العلاقة بين السلوك والفكر واللغة بالغ الأثر فيما عرف ب **"فرضية سابير وورف"**، أو فرضية النسبية اللسانية، ومؤداها أن بنيات اللغة الأم تحدد نمط التفكير لدى شعب من الشعوب، وتنظم ثقافته، وبها يتمثل العالم. وإذا كان الإجماع حاصلا حول وظيفة اللغة التواصلية فإن سابير يلح على وظيفة أخرى لا تقل أهمية عن الأولى، وهي وظيفة تمثل العالم بخلق بدائل تجعل الإنسان يستحضر العالم الخارجي عن طريق الكلمات التي لا تطابق تجربة الإنسان الفردية بل مقولات التجربة والمفاهيم . واللغة في عرف سابير لحمة المجتمع التي تمكن من التبادل والتواصل . وحول أصل اللغة ينفي سابير نفيا قاطعا أن تكون لغة ما بدائية وأخرى متطورة؛ فماضي الإنسان الثقافي موغل في القدم أكثر من أي لغة.

النص المترجم

يجب اعتبار أعمال **سابير** أهم الإسهامات التي مكنت من معرفة اللغة .فقد مهد، في مرحلة تالية لنشر **محاضرات في اللسانيات العامة** ، لقطيعة إبستيمية مع اللسانيات التقليدية تعادل في الأهمية ما قام به **سوسير**دونما التأثر به . لقد أرسى أسس تحليل سنكروني للنسق اللغوي بطريقة تفوق، من حيث التألق، ما قام به سوسير الذي امتازت طريقته بالصرامة (المنهجية) والدقة. ومع ذلك فإن "أبوي" اللسانيات الحديثة يقتسمان حظ سوء الفهم والإهمال الذي قوبلا به من لدن من جاء بعدهما؛ فلحد الساعة ما يزال معظم اقتراحات سابير النظرية في حاجة إلى الاكتشاف والتنقيب.

فسابير، المولود في ألمانيا عام 1884 هاجر إلى أمريكا وهو ابن خمس سنوات . وبعد المرحلتين الابتدائية والثانوية في نيويورك، تابع الدراسات العليا في اللغة الألما نية في جامعة كولومبيا؛ وهو الأمر الذي مكنه من الاحتكاك باللسانيات، من خلال محاضرات **فرانز بواص**. وكان لهذا اللقاء، شأنه في ذلك شأن اللقاءات اللاحقة ب**بنجامان لي وورف**، الأثر البالغ في توجيه أعماله.

ويعد **بواص** الذي تلقى تكوينه في مدرسة النحاة الجدد الألمانية، صاحب الاختصاص في لغات هنود أمريكا الشمالية، في بداية القرن العشرين . فقد مهد الأسس لنحو اللغات الأمريكيةـــ الهندية المقارن، من خلال مؤلفه**كراسة اللغات الأمريكية الهندية** (من 1911 إلى 1938) ومؤلفات أخرى. ومكن هذا المسعى السنكروني، المعتمد بسبب غياب تام للتراث المكتوب، من تجلية تعقد اللغات الهندية من **المكسيك** إلى **الألسكا** وتنوعها الشديد . وتحت تأثير **بواص** اتجه **سابير**، في الآن نفسه، نحو الأنتروبولوجيا واللسانيات. فشارك في رحلات إثنولوجية عديدة، وأقام طويلا في القبائل الهندية في أمريكا الشمالية وما تزال مؤلفاته الأن تروبولوجية ـــ وخصوصا تلك المتعلقة بأنساق القرابة ـــ تحمل بصمات الموقف الوضعي الذي نقله إليه **بواص**. فعلى المستوى اللساني حاول، من جهة، استخلاص الخصائص الكلية للغة، والقيام، من جهة أخرى، بتصنيف لمختلف الإجراءات النحوية التي تتبعها اللغات . وهذا عمل قام به إلى جا نب الاهتمامات المرتبطة بأصل اللغات وتطورها، وهي اهتمامات متشبعة بالتصورات الإوالية [1]. و في مجال التحليل النحوي ظهر تأثير **وورف** (في أعمال **سابير**) جليا. فقد أفاد منه هذا الأخير في التحاليل الأشد ملا ءمة للأنساق الصرفية والنحوية للغات أمريكية هندية عديدة، وخصوصا **الهوبي والأزتيك والشاوني**. وقد كانت كتاباته عن العلاقات بين السلوك والفكر واللغة وراء الفرضية الشهيرة **النسبية اللسانية** القاضية بأن بنيات اللغة الأم هي التي تحدد أنماط الفكر . وتسمى هذه الفرضية، أحيانا، " **فرضية سابير وورف**" [2].

يضاف إلى هذا التقديم المقتضب ولع **سابير** بالأدب والموسيقى التي كان يمارسها مؤلفا وناقدا وعازفا، إلى جانب اهتماماته الكبرى المتمثلة في اللسانيات والأنتروبولوجيا.

1- الطبيعة الاجتماعية الثقافية للغة.

لقد حدت أعمال **بواص وورف** العديدة، والأعمال التي أنجزها **سابير**، بهذا الأخير إلى الوعي بالتنوع الشديد الذي تعرفه أنساق اللغة (المختلفة)، سواء تعلق الأمر بالمستوى المعجمي أو الصوتي أو الصرفي. الاختلاف بين اللغات جلي وواضح؛ وهذا لا يقتصر على اللغات الغربية (وخصوصا اللغات المنتمية إلى المجموعتين الهندية الأوروبية والفنلندية المجرية) والأمريكية الهندية فحسب، وإنما يهم مختلف اللغات الهندية أيضا يرافق هذا التعددَ اللغويَّ تنوعٌ عميق للمؤسسات الاجتماعية والأعراف الثقافية . فالأنشطة الإنسانية، الثقافية واللغوية، تتغير " باستمرار كلما انتقلنا من مجموعة بشرية إلى أخرى، لأنه إرث الجماعة التاريخي الخالص، ونتاج التقاليد الاجتماعية الضاربة في القدم " (1953، ص.12). وكما هو الشأن عند **سوسير**، فإن **سابير** يقدم اللغة، منذ البداية، على أنها مؤسسة تاريخية و ثقافية اجتماعية ("الكلام...وظيفة ثقافية"، 1953، ص.12)؛ مؤسسة تتغير في الزمان والمكان بطريقة عفوية على ما يبدو. فاللغة تتوفر على خاصة، تشترك فيها مع كل الظواهر الثقافية؛ إنها، بالأساس، نسبية ومتغيرة واتفاقية.

ورغم هذه النسبية الأولية، فإن اللغة تمثل قاسما مشتركا بين كل أفراد المجتمع، لا ينفصل عن الظاهرة الاجتماعية نفسها؛ إنها تقوم، داخل المجموعة، بقدر معين من الوظائف الضرورية بل اللازمة لاستمراره في الوجود.

إن الهدف الأساس من اللغة هو ضمان إبلاغ الأفكار والرغبات والانفعالات بين (أفراد) الجماعة. وهو دور بدهي ومألوف لا ينبغي له أن يحجب عنا أن الجماعة تتوفر على أنماط أخرى للتواصل(غير اللفظي) وأن الكلام يؤدي أدوارا أخرى لا يبدو أن لها علاقة مباشرة بالتواصل . وبعبارة **سابير**: "اللغة، إنها هي، قبل أي شيء، تحيين صوتي للتوجه الذي يعمل على رؤية الواقع بطريقة رمزية "(1968، ص.41)، وهذا يدل، بعبارة أخرى، على أن اللغة تؤدي، إلى جانب الوظيفة التواصلية، وظيفة التمثيل الذي لا تقل أهمية عن الأولى (ينظر مفهوم الوظيفة الرمزية عند **بياجي**) [3]. ويقوم التمثيل على خلق بدائل أو تمثيلات للواقع الذي يعرفه المتكلم؛ وهي بدائل يشكل تنظيمها ما يسمى عموما **الفكر**.

وإلى جانب هاتين الوظيفتين الرئيستين، تؤدي اللغة، وفق **سابير** أدوارا ثانوية عديدة. فهي تشكل أداة فعالة للتجميع [4] بإحداث تماسك الجماعة وتقويته؛ وتسهم أيضا في تنمية الشخصية وتفردها عن طريق سائر خصائص الخطاب الفردية. وهي، في النهاية، وسيط للفعل ومعدل له.

2- اللغة نسق رمزي.

إذا كان **سابير** شديد الإعجاب بطبيعة اللغة الاجتماعية الثقافية، فإنه لم يكن كذلك بإزاء الخصائص الشخصية والفريدة وغير المستنسخة التي تميز التجربة الإنسانية. وإذا لم يكن شك في أن اللغة ذات وظيفة تواصلية، فإن المحتوى الذي ينبغي إبلاغه ذو طبيعة أحادية وخاصة وبأدق تعبير،مستعص عن الإبلاغ. وعليه فإن تحليل مؤسسة اللغة يقوم، عند **سابير**، على وصف نظام يجعل تحويل التجربة الفردية والوحيدة إلى وحدات لغوية مشتركة بين أفراد الجماعة أمرا ممكنا.

فعندما نشاهد معلمة تاريخية لأول مرة، أو نعاين حدثا طريفا، لا نحتفظ عن المعلمة أو الحدث إلا ببعض المحددات التي نعيد تنظيمها والتي تشكل "صورتنا" عن هذه المعلمة أو ذاك الحدث. وتظهر طبيعة تكوين المعرفة الفردية بجلاء عندما نطلب إلى مجموعة من الأفراد، أعجبوا بالمعلمة ذاتها، أن يصفوها أو يرسموها؛ و (تظهر أيضا) عندما نسأل مجموعة من الشهود حضروا الواقعة الواحدة : فالثابت (واللازم) تعدد الروايات والشهادات. ففرادة المعرفة، عند **سابير**، لا تنحصر في الأشياء النادرة أو الأحداث العجيبة؛ فالتجربة ذاتها تمتاز بالفرادة، ما دامت الصورة الفردية تتكون انطلاقا من اختيار معين، من انتقاء لخصائص أو مظاهر ملائمة. فعندما ننبس ب(الكلمات) " كنيسة" و"راجل" و" قلَبَ" و

" شجار" تصلح هذه الأخيرة لتعيين نسخة أو نسخ من الأشياء أو الأفعال أو الحالات كما أدركناها أو بنيناها في تجربتنا الفردية كمتكلمين. غير أن هذه الكلمات أو الرموز لا تقتصر على الإشارة إلى تجربتنا الخاصة كمتكلمين فحسب، ولو كان الأمر كذلك لأصبح التواصل محصورا للغاية، إذ سيرتبط بنسخ وحيدة للأشياء أو الأفعال كما تمثلها المتكلم في مخياله لا غير (راجل بعينه، والكنيسة التي تصورناها). ولكي يكون التواصل فعالا يجب أن تطابق الرموز "مقولات" أو "مجموعات" تضم مختلف ما أنتجته التجربة الفردية عن الواقعة الواحدة. فعلى تجربتنا الفردية إذن أن تندرج "في إحدى المقولات التي أقرها الجماعة ضمنا "(1953،ص.20). و لن تشير الأسماء، حينئذ، إلى نسخ الواقع كما هي؛ بل يجب تنقيح تجربة المتكلم عن هذه النسخ وتعميمها بطريقة تسمح بإدراجها في نوع من وعاء تصوري، يتم نقله إلى المدرك الذي يتلقاه ويطابق بينه وبين تجربته الفردية الخاصة.

فاللغة في عرف **سابير** تشكل أداة للتبادل الاجتماعي مكونة من وحدات أو رموز، تطابق مقولات التجربة أو التصور لا تجربة المتكلم الفردية . وكما هو الشأن عند **سوسير**، فهذا النسق ذو طبيعة شكلية؛ فالرموز ذات طبيعة سمعية (يحدثهاجهاز النطق ويدركها السمع)، إلا أن اللغة ذاتها مستقلة عن قاعدتها المادية، التشريحية أو الفزيولوجية.

واللغة ترتكز على "علاقة رمزية خاصة (اعتباطية فزيولوجيا)بين مختلف عناصر الوعي (الإدراك)، وبين مجموعة من العناصر المتمايزة الواقعة في مناطق الدماغ السمعية والحركية والعصبية وغيرها...ولا سبيل لنا غير النظر إلى اللغة على أنها نسق رفيع يشتغل في دواخل الإنسان النفسية أو الروحية المعقدة"(1953،ص.18).

ويصف **سابير** العلاقات بين الأصوات اللغوية وآثار التجربة التي تمثلها ب " المتواضع عليها" و" الرمزية" وكذا " الاعتباطية فزيولوجيا". ويبدو أن **سابير** لم يتجاوز، بهذه التسميات، الموقف التقليدي الذي يتبناه أصحاب التواضع؛ فالأسماء وضعت لتسمية المفاهيم عبر عقد اجتماعي، من غير تعليل ذاتي (فزيولوجي)لاختيار هذا الرمز للتعبير عن هذا المفهوم دون غيره وهو تصور دون الموقف السوسيري، بسبب غياب مسألة الاعتباط الجوهري و لازمته **القيمة** [5] التي تحصل للعلامة في نسق الاشتغال السنكروني المتمثل في اللسان.

وكان لتبني **سابير** موقف التواضع أثر مزدوج؛ فهو يستبعد، من جهة، تحليل الرموز على أنها قيم نسبية، ويمنع، من جهة ثانية، التمييز بين مستويي الدال والصورة السمعية ومستويي المدلول والمفهوم . ومما يذكر أن هذا الاصطلاح المزدوج، الذي أدرجه **سوسير** في مرحلة متأخرة، والذي لم يفهمه محررو **المحاضرات**كان يمكن من تمييز الصور السمعية و " التصورية "، أي التوليفات النفسية الفردية، عن إعادة ترتيبها في اللسان النسق الاجتماعي، باستعمال مصطلحي " القيمة " الدال والمدلول. ويبدو أن غياب هذا النمط من التمييز هو الذي حدا ب **سابير** إلى إقرار فرضية النسبية اللسانية، الغائبة عن أعمال **سوسير**. فالرموز تشكل عند **سابير** بطاقات مضمومة، في ذهن المتكلم،إلى مقولات تصورية تطابقها بطريقة مباشرة. وقد يتنوع العدد والصنف وكذا تنظيم هذه البطاقات أو الرموز تنوعا كبيرا، وفق النسق اللساني. كان تنظيم الرموز يتغير، فإن مقولات التجربة التي تطابقها تتغير هي أيضا . وهذا ما يقتضي أن لكل مجتمع أو ثقافة طريقة خاصة لتعميم التجارب الفردية و تنقيحها؛ أي صورة خاصة لتنظيم الذهن، وبعبارة مقتضبة صورة متميزة للفكر . وكما هو ملاحظ، فقد أدت إقامة التطابق المباشر بين

الصور السمعية والتصورات، عند **سابير** بداهةً إلى فرضية النسبية اللسانية . وأما **سوسير** فقد نفى حتمية تأثير اللغة في الفكر، عندما ميز العمل النفسي الفردي المؤدي إلى إعداد الصور السمعية والتصورية عن تقطيع هذه الصور الذي تقوم به المواضعات الاعتباطية المنتمية إلى لسان خاص.

3- اللغة نسق تعبيري.

تؤمن اللغة باعتبارها نسقا رمزيا يمثل مقولات التجربة، في المقام الأول ، دور المرجع؛ فهي تحيل على تجارب المتكلمين ومعارفهم، ويمكنها عند الاقتضاء أن تأتي بديلا عنها؛

" فالكلام والفعل يشتركان في نسج ثوب واحد، خلال هذه السلاسل من التبادل بين الأشخاص الذي يشغل حيزا مهما من حياتنا اليومية "(1968،ص.36). غير أن اللغة ليست نسقا مرجعيا فحسب؛ ذلك أن اختيار الكلمات والعبارات والبنيات التركيبية، في حد ذاته، وبشكل مستقل نسبيا عن مقتضيات المحتوى الواجب إبلاغه، يوحي ببعض الخصائص السيكولوجية للمتكلم أو لمحاوريه أو لمقام الخطاب في عمومه. وهكذا فإن الخطاب يحمل رمزية من درجة ثانية، ظاهرة تقريبا حسب السياق إلا أنها دائمة الحضور بها. اللغة، إذن، نسق تعبيري . وهذه الطبيعة التعبيرية للخطاب هي ما يمكن من الوقوف على تعدد المعاني والمعنى غير المصرح به وبعض الاختلافات التي تهم تأويل النص الواحد، الخ . وسيقوم **بالي** **المسليف**[6]، بعد **سابير**، بتحليل وظيفة اللغة التعبيرية تحليلا دقيقا؛ فقد أدرج مفهومي "التقرير" و"الإيحاء" بدل "المرجع" و"العبارة".

4- الوظيفة والشكل في اللغة.

سنتناول في هذه الفقرة فرضيات **سابير** المتعلقة بتنظيم نسق اللغة الداخلي، أي الصرف والتركيب والوظائف الدلالية التي يقومان بها.

والوظائف التي وسمناها ب "الدلالية" تقع داخل النسق (اللغوي) وتختلف عن الأدوار "السيكولوجية" التي ينهض بها النسق في تنظيم السلوك . ويتعلق الأمر بالتعديلات المطبقة على المفاهيم الأساس التي تعبر عنها الجذور، وبالعلاقات القائمة بين مختلف المفاهيم . وقد جمع **سابير** هذه الوظائف الدلالية في أربعة أصناف سماها بطريقة غير لائقة "المفاهيم". يتعلق الأمر، بدءا، بالمفاهيم الأساس أو الملموسة، التي هي (عبارة عن) مقولات الأشياء والأفعال والحالات، المعبر عنها عادة بكلمات منفردة أو جذور. و تأتي بعدها مفاهيم الاشتقاق، التي تضيف إلى الأصل معاني أخرى (نحو مفهومي الفاعل والصغر وغيرهما).

ثم نجد صنفين من مفاهيم "العلاقاتي" تتميز بكون أثرها يتجاوز الكلمات التي ترتبط بها . فالمقولة الفرعية الأولى ما تزال تحتفظ ببعض الفروق الملموسة (العدد والجنس الخ)؛ وأما الثانية فمجردة (العطف). ولا يشكل تحليل الوظائف الدلالية لمختلف أشكال اللغة أهم إسهام جاء به **سابير**. وأهم منه تحليل أشكال اللغة . فقد بين **سابير** [7]، انطلاقا من أمثلة عديدة، استقلال الأشكال التام عن الوظائف التي تقوم بها. وهكذا نجد الفرنسية، مثلا، تعبر عن النفي بزيادة في الصدر نحو (*in*utile) لامُجْدٍ أو بأداة نحو (*sans* utilité) دون جدوى أو بعبارة ظرفية (ne... pas)؛ وتعبر عن الجمع إما بتغيير أداة التعريف وإما بلاحقة وإما بالتعاقب المقطعي (cheval-chevaux) حصان أحصنة.

ويحتمل في كل لغة أن تعبر عن كل الوظائف الدلالية، ولا فرق بين اللهجات "البدائية" واللغات المعدودة "متطورة" أو مجردة، غناء وتعقد الأشكال الدالة على هذه الوظائف . فالنسق اللغوي نسق كلي سواء تعلق الأمر بالوظائف الداخلية التي يقوم بها، أو تنوع وسائل التعبير التي يتوفر عليها . وإنما تتمايز الألسن ب "تفضيل" أو أنماط من الأشكال الخاصة، أو إجراء نحوي ما . ويميز **سابير** بين ستة أنماط من الإجراءات النحوية [8] وهي رتبة الكلمات والتأليف والزيادة والتغيير في الجذر والتضعيف والفروق في النبر.

فرتبة الكلمات هي، بلا شك، الإجراء الأكثر بساطة والأعم ما دامت رتبة الكلمات في ملفوظ ما ذات دلالة . ففي جملة "قتل الدبُّ الصيادَ "، جُعل "الدب" فاعلا و"الصياد" مفعولا انطلاقا من رتبتهما في الجملة وهذا الإجراء أساسي في الفرنسية .وفي لغات أ خرى كاللاتينية، لا تتغير الوظيفتان الدلاليتان للفاعل والمفعول مهما كانت رتبة الكلمات التالية : hominem femina وvidet [9]؛ ولا يحدث أي تغيير في دلالة الجملة. في حين قد يؤدي اختيار رتبة ما إلى بعض الفروق الأسلوبية.

ويقضي التوليف بضم أكثر من جذر في كلمة واحدة؛ وهو متداول بكثرة في لغات طبيعية كالصينية والإنجليزية، نحو (typewriter)آلة رقن و (blackboard) سبورة و (fiddlestik) كمان؛ ويكاد يغيب عن الفرنسية [10].

وتبقى الزيادة الإجراء الأكثر استعمالا، وتقضي بإضافة سوابق (*in*-audible) غير مسموع أو لواحق (pend-*able*)قابل للشنق أو التعليق ، إلى الجذر . ويلاحظ في بعض اللغات زيادة مورفيم داخل الجذر نفسه.

يضاف إلى هذه الإجراءات الثلاثة الرئيسة التعاقب الصوتي نحو (sing-sang-sung) [11] في الإنجليزية،وهو مستعمل بكثرة في اللغات السامية، وتضعيف الجذر أو جزء منه، ثم فروق النبر وهي خاصةٌ تهم اللغة الصينية: ففي هذه اللغة تعني « mai » اشترى إذا كان النبر مرتفعا، وباع إذا كان نازلا. ويحدد اختيار الإجراءات وكثافتها وكذا الوظائف المحددة التي يتم إلحاقها بها، نمط اللغات المختلفة. وهو أمر دفع سابير إلى اقتراح ثلاثة معايير متميزة من أجل التصنيف أو التنميط وهي: الدرجة النسبية لتركب أو تعقد كلمات اللغة، ودرجة اندماج أو اتساق مختلف مكونات الكلمة، وأخيرا كيفية التعبير عن المفاهيم العلاقية الأساس للغة ما. وكان التنميط المبني على المعيار الأول هو الأكثر تداولا في الأدبيات اللسانية بصورة دائمة؛ فهو يميز بين أربعة أنماط من اللغات: فهناك اللغات العازلة [12] والضعيفة التركيب والتركيبية والمتعددة التركيب. ففي اللغات العازلة لا يمكن تحليل الكلمات؛ إذ لا يمكن تعديلها ببعض التغيرات الداخلية عن طريق الزيادة، وعليه يتم التعبير عن "مفاهيم" العدد والزمن والجنس وغيرها بمورفيمات مستقلة. وتعتبر الصينية لغة هذا النمط بامتياز، وخصوصا لدى مجتمعات جنوب شرق آسيا. ويتمثل نمط اللغات الضعيفة التركيب في العديد من اللغات الأوروبية نحوالإنجليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية الخ. ففي هذه اللغات تعتري الجذر تغيرات مختلفة، عموما في صورة إلحاق، إلا أن تعقد الكلمات يبقى ضعيفا. وتتمثل المجموعة التركيبية في اللغات السامية وبعض اللغات القديمة المنتمية إلى فصيلة اللغات الهندية الأوروبية (السنسكريتية واللاتينية والإغريقية). وتتميز هذه اللغات بتعقد أنساق تحديد الإسم (الجنس والعدد والحالة الإعرابية) والأفعال (الجهة والصيغة والزمن...) تعقد يتجسد في تعدد الإعراب والزيادة في أول الجذر وآخره. وفي هذه اللغات نجد مرونة التنظيم الداخلي (للكلمات)، وخصوصا قواعد الرتبة (ينظر إجراء "رتبة الكلمات") تعوض غنى الكلمات الصوري. وأما الصنف الأخير من اللغات فيوسم بالمتعددة التركيب، وهي اللغات التي تجمع بين التعقد الصوري للتعبير عن المفاهيم العلاقية داخل الكلمة وإمكان جمع مفاهيم (جذور) عديدة في كلمة واحدة. ويمثل هذا الصنف الأقصى الإسكيمو والألغونكين اللغتان المعروفتان لدى الباحثين.

5- أصل اللغة وتطورها.

تمثل قضايا طبيعة اللغة وأصلها وإيقاع نموها ومستويات هذا النمو، أحد المجالات التي برز فيها فكر **سابير** دقيقا وذكيا ومتأنيا، وهي، مع الأسف، خصال تغيب أحيانا عن الدراسات اللاحقة التي تناولت هذا الموضوع. وقد طعن **سابير** منذ الوهلة الأولى في المواقف "النشوئية"، بالاعتماد على

اكتشافات الحفريات والإحاثة التي تمت في الربع الأول من هذا القرن (والتي تأكدت مع أعمال **لوروى كوران**، 1964،1965)؛ فماضي الإنسان الثقافي أقدم بكثير من أقدم اللغات التي نعرفها، وعليه لا يمكن اعتبار لغة ما "بدائية"من منظور تاريخي . ولا يرى **سابير** أي حكمة في اعتبار بعض اللغات بدائية وأخرى متطورة، سواء تعلق الأمر بالتطور التاريخي أو تعقد البنية (اللغوية). كما أنه انتقد النظريات القديمة المرتبطة بنشأة اللغة وهي نظريات توصف أحيانا ب "البيولوجية" (ينظر **ريفيز** 1946)، وكانت تعتبر اللغة ناتجة إما عن تطور بطيء للأصوات الطبيعية التي كان الإنسان يصدرها بطريقة عفوية، وإما عن محاكاة الأصوات الطبيعية . فهذه النظريات لا تهم، وفق **سابير**، إلا مظهرثانويا من مظاهر اللغة ، المظهر التعبيري؛ولا تفسر بتاتا ظهور أصوات ذات قيمة مرجعية أو تمثيلية . ووجب حينئذ تفسير تحول الأصوات البدائية ذات القيمة التعبيرية إلى أصوات تمثيلية ولحل هذا الإشكال، يرى **سابير** ضرورة اللجوء إلى علم النفس؛ ومن الغرابة أن الموقف الذي بسطه يشبه الموقف الذي سيبسطه **بياجي** فيما بعد (يقول **سابير**): " كل ما يمكن قوله في الوقت الحاضر أن اللغة كما هي، خاصة إنسانية خالصة، يجب البحث عن أصولها في ملكة القرود الراقية في حل بعض الإشكالات الخاصة باستخلاص شكل أو ترسيمة مجردة من تفاصيل وضعية معينة ويمكن الافتراض، من ناحية ثا نية، أن عادة تأويل بعض العناصر المنتقاة من وضع (معين) على أنها علامات لوضع عام، موضوع رغبة، دفعت الإنسان البدائي ، عبر مراحل، إلى تصور عام للترميز ...ومن هذا المنظور لا يمكن اعتبار اللغة تطورا مباشرا للنشاط الصوتي، بقدر ما تعتبر تحيينا، في صورة نشاط صوتي، لـ لميل نحو السيطرة على الواقع "(1968 ص.ص. 39-40) [13].

6- اللسان والثقافة والتنظيم الذهني.

جرت العادة أن تنسب فرضية النسبية اللسانية، التي تعلق البنيات الذهنية ببعض خصائص النسق اللغوي، إلى **سابير** وتلميذه **وورف**؛ وهيما يعرف ب "**فرضية سابيرـــ وورف** ". ولا تبدو هذه التسمية، المقبولة لدى عموم مؤرخي اللسانيات ومؤلفي الكتب، مستساغة . ذلك أن مواقف الرجلين في هذا المجال مختلفة، بل متباينة؛ ولا يمكن وصف التحليل الذي قدمه **سابير** ب" النسبية اللسانية ".

ومن المؤكد أن لسانيات **بواص** و**سابير** و**وورف**الناشئة نهلت من ينابيع اللغ ات الأمريكية الهندية والأوروبية المقارنة، وأنه لم يكن من الممكن تجاهل إشكال العلاقات بين تنوع اللغات واختلاف

البيئة الطبيعية والوسط الاجتماعي الثقافي (والفكري). ومن جهة ثانية، جعل تحليل الرمز الذي قدمه **سابير** (14) التطابق اللصيق بين عالم المفاهيم الاجتماعية النفسية وعالم السمات اللفظية أمرا محتوما . غير أن التطابق لا يعني التبعية والارتباط، ولا يقتضي التفاعل بين المعجم (الرموز) والثقافة تفاعلا بين الصرف ـــ تركيب والثقافة.

وقبل كل شيء، وقف **سابير** في مقالة له " اللغة والبيئة "(ينظر1968،ص.73 حتى 98)، موقفا واضحا من القضية التقليدية " بيئة-مجتمع "فقد رأى أن العالم الط بيعي يمارس تأثيره على الأفراد مثل(ما هو الشأن بالنسبة لعوامل أخرى كالوراثة). والمجتمع المتوفر على ميكانزمات لا ترتبط بالوسط الطبيعي إلا ارتباطا جزئيا، يقوم إما برفض ردود الفعل الفردية أو احتضانها أ و تحويلها. فالظواهر الاجتماعية الثقافية مستقلة نسبيا عن الوسط الطبيعي وفق ما يراه **سابير**. وفيما يخص اللغة، نجده يتبنى موقف **سوفهير** يعتبرها ظاهرة ثقافية أساسا، لا يؤثر فيها الوسط الطبيعي إلا لماما . ويختلف عنه في طبيعة التفاعل بين اللغة والمحيط الثقافي . فالمتوقع لديه أن تعكس اللغة بعض المظاهر الثقافية؛ وقد تظهر هذه الانعكاسات في مستوى المعجم أو الصوتيات أو الصرف ـــ تركيب . وفي الحقيقة، يظهر تحليل المعطيات المقارنة أن التأثير الاجتماعي الثقافي لا يتم إلا في مستوى المعجم . وأما النسقان الصوتي والصرف ـــ تركيبي فيبدوان مستقلين عن أنماط الثقافة *.

ف**سابير** يعتقد بوجود محيط طبيعي، وثقافة بناها أفراد المجموعة، ولغة تعيد إنتاج بعض الخصائص الثقافية، في المعجم لا غير و في الأخير يجب التمييز بين مسألتين فيما يخص العلاقات بين اللغة والبنيات الذهنية، التي تشكل مركز فرضية الـ نسبية الثقافية. فعلى المستوى التاريخي أو النسالي، يمكن تصور اللغة مرآة تعكس التنظيم الثقافي، وتعكس أيضا، بطريقة غير مباشرة، البنيات المعرفية التي أسهمت في تكوين هذا التنظيم؛ وهذه مسألة لم يبد فيها **سابير** موقفا صريحا . وعلى مستوى تطور الفرد أو مستوى العلاقات السنكرونية بين اللسان وبنية الذهن، يتصور **سابير** اللغة على أنها (أداة) تنظيم تأملات الإنسان أو طريقته في إدراك العالم الموضوعي، وذلك كله بوساطة بطاقات لفظية .

وسيعمق **وورف** هذا المظهر الأخير من مواقف **سابير** ويحوله. فهو يرى أن اللغة هي التي أخرجت المحيط الخارالطبيعي والثقافي، من العدم؛ ولولا بنيات النسق اللساني الخاصة لما أمكن إدراكه ":
يقوم.المنسق اللساني الموجود في البنية الخلفية لكل لغة بصياغة الأفكار ...إنه مبرمج نشاط الفرد الذهني وموجهه، بسبب تحليله للانطباعات والاستنتاج الذي يقوم به لمخزونه الذهني "،(**العلم**

واللسانيات، 1969). هذا الموقف يؤدي بداهة إلى النسبية التامة . فكل معرفة للعالم، وكل تنظيم ذهني مرتبط باللغة؛ وكل نسق خاص نظرةٌ مخصصة للعالم.

ففرضية **وورف** تجعل التنظيم الذهني مشروطا بكل مظاهر اللغة، من معجم وصوتيات وصرف وتركيب. وتعددت محاولات التحقق التجريبي من هذه الفرضية، سواء في روسيا أو أمريكا . فقد أنجز **لينبيرغ** خلاصة للنتائج المحصل عليها في مؤلفه **الأسس البيولوجية للغة** (1967)، يفهم منها وجوب طرح النسبية التامة. ذلك أن الخطاطة الخاصة بلغة معينة، فيما يخص بعض المقولات المعجمية الفرعية (كأسماء الألوان مثلا)، تشكل معيارا يؤثر، لا محالة، في نتائج هذه التجارب . إلا أن هذا التأثير لم يتم التحقق منه، حسب مستوى المعارف الحالي، إلا في تجارب التذكر (دون الإدراك)، ومصدره المعجم لا غير. وهكذا، فقد كان في اعتقاد **سابير** أن البنيات الصوتية والصرف ـــ تركيبية لا تأثير لها على التنظيم الذهني.

هامش المؤلف:

*تجدر الإشارة إلى تطابق موقفي **سوسير وسابير** في هذا الأمر . فقد كانا يعتقدان بإمكان انعكاس التنظيم الثقافي في بنيات اللغة في " الأصل". ثم كان أن تطورت الثقافة بإيقاع سريع يفوق إيقاع تطور اللغة، فهذه الأخيرة عصية على التغيير.

هوامش المترجم:

1- نسبة إلى الموقف الفلسفي الذي يرى بأن الوقائع أو الظواهر قابلة لأن تفسر على أنها نتيجة توليف وتركيب للحركات الطبيعية كما تشتغل الآلة. يراجع **المعجم العام للعلوم الإنسانية**، المنشورات الجامعية، باريس، 1975، مادة **mécanisme**.

2- ارتبطت هذه النظرية ب **سابير وورف**، وتقوم على فكرة أن اللغة تنظم ثقافة المجتمع؛ أي كيفية إدراك هذا المجتمع للواقع وتمثله للعالم الخارجي. بالنسبة إليهما فإن اختلاف اللغة يؤدي إلى اختلاف في التركيب الذهني والعاطفي . وهذا يعني أننا أمام عالمين مختلفين لا أمام عالم واحد يدرك بطريقتين مختلفتين.

3- ينظر **بياجي**: **تكون الرمز عند الطفل** **La formation du symbole chez l'enfant**، نوشاتل 1946، **وسيكولوجية الطفل** **La psychologie de l'enfant**، باريس، 1966. والتمثيل عنده مرتبط بنمو الطفل وهو وظيفة تقتضي بديلا أو دالا يرتبط، ضمن علاقة محددة، بمحتوى يجب التعبير عنه أو دال. والوظيفة التمثيلية عنده مرتبطة بما يسميه " القدرة المعرفية العليا " التي تشكل اللغة جزءا منها وأحد تجليات الوظيفة الرمزية في تفاعل الإنسان مع الوسط الطبيعي والاجتماعي، والتي يبلغ بها درجة التجريد والتصور الذهني.

4- الدرجة التي تمكن الفرد من الوعي بانتمائه إلى جماعة معينة، ولا غرو أن اللغة هي أحد مقومات المجتمع . واللفظة ترجمة للكلمة socialisation التي تعني تنمية الروابط الاجتماعية بين الأفراد.

5- مفهوم القيمة من المفاهيم الرئيسة التي قام عليها صرح البنيوية . ولتوضيح هذا الأمر ضرب **سوسير** مثال لعبة الشطرنج، فقيمة أي قطعة على الرقعة ليست قيمة ذاتية، وإنما بكونها تحتل موقعا معينا على الرقعة يجعلها في علاقة معينة مع باقي القطع . فقيمة

الملكة، مثلا، ليست في القطعة ذاتها، وإنما في موقعها وما ينتج عنه من علاقات . ومن هنا نفهم مبدأ الثنائيات الذي جاء به **سوسير** كالدال والمدلول والمحورين المركبي والاستبدالي...

6- ينظر في هذه المسألة كتابه**مقدمة لدراسة اللغة** **Prolégomènes à une théorie du langage**، باريس، 1968.

7- ينظر **اللغةمدخل إلى دراسة الكلام** **Langage :introduction à l'étude de la parole**، باريس، 1970، الفصل الرابع الموسوم ب: الشكل في اللغة: الإجراءات النحوية، صفحة 57 وما بعدها.

8- ينظر **Langage** ، الفصل الرابع، صفحة 61 وما بعدها.

9- من المعلوم أن الإعراب دليل على الوظائف النحوية؛ وأن اللاتينية لغة إعرابية مثلها مثل العربية. وعليه، لا عبرة برتبة الكلمات لتحديد الفاعل من المفعول مثلا؛ فالإعراب يدل على أن hominem هو المفعول و femina هي الفاعل . والجملة المكونة من هذه الكلمات الثلاث هي: رأت المرأةُ الرجلَ.

10- يذكر التوليف بالنحت في العربية، مع فارق يتجلى في أن العربية لغة اشتقاقية لا تقبل ضم جذرين كيفما اتفق، وإنما بنحت كلمة جديدة مؤلفة من كلمتين شريطة موافقة أحد أوزان العربية، نحو عبشمي المنحوتة من عبد وشمس.

11- هذه الكلمات الثلاث تنتمي إلى جذر واحد دال على الغناء، غير أنها تعبر عن دلالات مختلفة بسبب التغير الصوتي الذي طرأ على إحدى حركاتها في الموقع نفسه؛ وهكذا تدل sing على المصدر والحاضر، وsang على الماضي البعيد، وsung على صيغة الفعل المصرف إلى الأزمنة المركبة، التي تكون الاستعانة فيها بما يعرف بالفعل المساعد **l'axiliaire** . وقريب من هذا ما نلحظه في بعض الكلمات التي يكون الانتقال فيها من المفرد إلى الجمع بتغيير الحركات نحو أَسَد/ أُسْد و حِمار/ حُمُر.

12- هي اللغات التي تفرد الرمز الواحد للمعنى الواحد، من غير اشتقاق أو زيادة؛ وتكون الكلمة فيها عبارة عن سواد بين بياضين، حسب اصطلاحات الرقانة، وغير قابلة للتفكيك.

13- ينظر كتابه **اللسانيات** **linguistique** الصادرة ترجمته في باريس سنة 1968.

14- المرجع السابق.